صفات محمد
وعلاقتها بطبيعة دعوته

بقلم الأستاذ عبد العزيز البشري

اعلم رشدنا الله ورشدك ، وأيدنا بالحق وأيدك ، أن أصول الفضائل ، وجرائيم الرذائل ، معروفة متواضعة من الزمان الأقدم . فالصدق ، والشجاعة ، والنجدة ، والعدل ، والكرم ، والوفاء ، مسلم - عند كل قوم وفى كل زمان - بأنها من غرائز الخير ؛ كما أن الكذب ، والجبن ، والفسولة ، والظلم ، والبخل ، والغدر ، مسلم - عند كل قوم وفى كل زمان - بأنها من ضرائب الشر ؛ فإذا اختلفت أقوام على بعض الخلال أو الهنات ، فإن شيئاً من ذلك لايصيب أصول الأخلاق ، وإنما يتعلق بفروعها ؛ ولعل أبلغ ذلك يرجع إلى اختلاف التقدير فى رد الفرع إلى أصله ، وضم الشكل إلى شكله.

وإذ كان هذا هكذا ، كانت خلال الخير محبوبة مستجادة ، وكانت خلال الشر مرذولة مبغضة فى كل زمان وفى كل مكان ، وكان الناس أحرياء بأن ينتحلوا كرائم الأخلاق ، ويتنافسوا جاهدين فى ذلك ، ضرورة أن الإنسان لا يكره الخير لنفسه ، بل إنه ليود أن يؤثر بكل كريم وكل جميل .

هذا كله بديه لاشك فيه ؛ على أنك كثيراً ما يتداخلك العجب ، وترجحك الحيرة ، إذ ترى رجلاً حادّ الفطنة نافذ الرأى واسع العلم يتجافى عن كثير مما يعلم أنه من أفضل الفضائل ، ويتقلب فى كثير مما يجزم بأنه من أرذل الرذائل ، لايتكسر ذلك على شأن المؤمن فى أحكام الدين ، ولا المرئى فى قواعد المروءة . بل إن الأمر ليتجاوز ذلك إلى الأسباب العامة والمنافع الخاصة ، فكأى من رجل يؤمن أشد الإيمان بأن ماجاء به الدين هو الحق ، ويجزم كل الجزم بأن الصلاة واجبة على المؤمن ، ومع هذا تراه لايقوم للصلاة قط . ويقطع فيابينه وبين ربه والناس ن الخمر حرام ، وأنها أم الخبائث ؛ ومع هذا لايفتث يعاقرها ماتهيأ له ذلك .

وكأى من رجل يحذق قواعد الأخلاق ، ويعلم أن الكذب مما يسقط المروءة ويضع من المنزلة فى الناس ؛ ومع هذا تراه لايفتأ يكذب ؛ ولقد يعلم أن الناس يعرفون أنه يكذب .

وكأى من رجل أوتى البصيرة فى فن الاقتصاد ، وتدبير الأموال ووجوه تثميرها ؛ ومع هذا تراه مسرفاً متلافاً لايبقى على قل ولا كثر ، ولقد يعالج فى تثمير المال ضرباً لايأذن به

ماحذق من علم ولا ماأصاب بطول التجاريب !

اللهم إن هذا كله لقد يقع ؛ بل إنه لواقع بقدر كبير . إذن لقد خرج لنا من هذا أن ليس هناك تلازم ـ فى العادة ـ بين الفعل والاعتقاد ، أو على التعبير الشائع ، بين العلم والعمل . قال جل من قائل : «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » . وقال تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

ولقد عرفت أن الإنسان بطبعه أثر يود لو استقل بكل مافى الدنيا والآخرة من ألوان الخير والإحسان ، إذن فما ينحرف به عن سبلها ، ويعدل به عن طلبها من وجوهها ، إلا مايعتريه من ضعف الإرادة ، ويدخل عليه من اختذال العزم ، فيستسلم لنزعات الهوى ، ويخنع لدواعى الشهوة ، فيعرض عما يعرف أنه الحق الجدى عليه فى أسباب دنياه ودينه ، ويقبل على ما لا شك عنده فى أنه باطل من الباطل المتلف لماله ، والهادم لبنيته ، والذاهب بأمر دينه ودنياه جميعاً .

وكأى من رجل أصاب من الفضائل صدراً ، وأخطأ صدراً ، وأقام من أحكام المروءة على بعض ، وأعرض عن بعض ؛ فهذا تراه يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويؤدى حق الصوم فى رمضان ، ومع هذا تجده لايتأثم من شرب الخمر أو من مقارفة غيرها من المناكر . وهذا لقد تراه شجاعاً لايهاب صولة السيوف ، ولا يرهب مواقع الحتوف ، ومع هذا تراه حريصاً على جمع المال والاكتناز والضن منه بالدانق والسحتوت حتى على مايحفظ أطراف المروءة ويعصم من سوء المقالة .

ولقد ترى هذا جواداً متلافاً يفتدى بجليل الأموال ما جل ودق من أسباب مروءته ، ويطلب بها حسن الأحدوثة فى الناس ؛ ومع هذا تراه حقوداً شديد الطلب لمعايب الناس والتدسس إلى مكارههم ، وبسط اللسان بمنكر القول فيهم ؛ وهكذا . وأولئك ممن يجرى عليهم قول الله تعالى : «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » .

ويخرج لنا من هذا أيضاً أن ليس هناك تلازم بين مجموعة الفضائل ، ولا بين مجموعة الرذائل ؛ والوجه فى ذلك أن الإرادة البشرية قد تقوى فى بعض نواحيها وتضعف فى بعض ؛ فمن حيث تكون القوة تستوى الفضيلة ، ومن حيث يكون الضعف تستمكن سطوة الرذيلة .

هنالك أيضاً مسألة ثالثة ، هى الدعوة ، فإن كثيراً من الناس يتجردون فى الدعوة إلى لون من ألوان الخير أو مايزعمونه كذلك ، ومن الدعاة من تصدر دعوته عن إيمان وعقيدة ، وبعبارة أخرى ، إنه يطلب إلى غيره فعل مايعلم أن فيه الخير والنفع ، وينهاه عما يعلم أن فيه الشر والضر ، ومنهم من يدعو إلى ما لا يعتقده ولا يؤمن به ، وأولئك الدجالون الذين لايخلو

وجه الأرض منهم فى كل زمان . على أن بسط الحديث فى هؤلاء ليس مما تدعو إليه حاجة هذا الكلام . ومهما يكن من شىء ، فالمفروض أن من يدعو غيره إلى مايؤمن بأنه خير من الخير، وينهاه عما يجزم بأنه شر من الشر — المفروض أن من يقوم لمثل هذا يأخذ نفسه به أولا ، لأن الإنسان — كما أسلفت عليك — أثر بالطبع ، لا يحب أن يتجاوزه الخير والنفع إلى غيره، ولا يحب أن يستأثر بالشر والأذى دون غيره، ولأن من يدعو سواه إلى شىء فإنه يكون — فى العادة — وثق بأسبابه علماً وأسنح به إيماناً ، ومع ذلك فإننا نرى كثيراً من الدعاة إلى الخير الصحيح من يخالفونه إلى الشر الصريح ، مع أنه لاشك فى إيمانهم بحق مايدعون إليه ! وأولئك الذين وجه الله تعالى خطابه عليهم «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون».

والواقع الذى لايطوف به الريب أن هؤلاء لايكرهون لأنفسهم الخير والنفع ، ولا يحبون لها الشر والضر ؛ ولكنه ضعف الإرادة يسطو به الهوى ، وانخذال العزم تعصف به الشهوات على ماتقدم به الكلام .

وعلى كل حال فقد بان لك أن هذه الخلال الثلاث : (الإيمان ، والعمل ، والدعوة) لاتلازم بين شىء منها وبين شىء ؛ على أن هذا لاينافى أن امرءً يعمل بما يعلم ، وأن امرءً يدعو إلى مايؤمن ، ويكون فى أخذه نفسه بالفضيلة القدوة الصالحة فيما يدعو إليه من فنون الخير . وهؤلاء الأقلون عدداً الأكثرون مدداً .

عصمة الأنبياء

ومهما يكن من شىء فإنه من أندر النادر أن يخرج فى الناس من تحلى بجميع الفضائل ، وتجرد عن جميع الرذائل ؛ فإن هذا إذا استثنيت الأنبياء وخاصة أصحابهم وحواريهم مما يكاد يتصل بالمستحيل . وإن التاريخ البعيد والقريب ليحصى على الكثيرين من عيون الفلاسفة وأئمة المصلحين من بناة الفضيلة وشارعى قواعد الأخلاق ، من تقلبوا فى أوضع الشهوات ، وانغمسوا فى أقذر الرذائل ! ذلك بأن الإنسان مهما أوتى من سعة العلم ، وصحة الرأى ، وحسن التدبير ، وصدق العزم ، فإنه ضعيف، لقد يميل به الهوى ، ولقد تغلبه الشهوة . قال تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً »

أما الأنبياء فضلاً عما آتاهم الله من شدة العقل ، ونفوذ الفطنة ، وسعة العلم ، وقوة الطبع ، ومضاء العزم ، فقد أمدهم بالتوفيق ، وحاطهم بالعصمة ، وكف عادية الشهوات عنهم ، فما تجد السبيل إلى أنفسهم . وهيهات لشىء من خلق الله أن يسطو بما قضى الله .

ولله تعالى فى هذا حكمته الواضحة ، فإن الرسول هو أداته — جل وعلا — فى تبليغ دعوته ،

وأداء رسالته . ولا يتسق للحكمة ألا يكون رسول الله أول قائم بما يأمر الناس به ، وأول مجتنب لما يزجرهم عنه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . ولقد قال الحكماء : إن فاقد الشيء لا يعطيه . إلى أن الأليق برسول الله أن يكون فى الناس المثل الأعلى فى الأخذ بمحمود الخلال ، والتجافى عن مرذول الخصال . والرسل إنما يبعثون أولاً للدعوة إلى الإيمان بالله ولتقويم الأخلاق . قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . هذا فضلاً عن أنه لو تردى النبى — حاشا لله — فى أى الرذائل ، لكان فى ذلك أنفذ الطعن فى صحة دعوته ، وصدق رسالته ، وهيهات على ذلك أن يؤمن برسالته أحد ، أو يظاهره على أمره إلا منافق لا يشايعه — فى ظاهر الأمر — إلا إيثاراً للعاجلة : لو قدر أن الدولة دائلة له ، وأن منافع الدنيا صائرة إليه . وما كان قط لمشايعة هؤلاء فى أمر الدعوة العظيمة جليل خطر ، ولا بعيد أثر .

ولقد تعلم ما أصاب الأنبياء من عنت قومهم ، وشدة حملهم عليهم ، وتلوينهم العذاب لهم ، إلى حد القتل والتحريق وما دون ذلك من فنون الأذى . ومع هذا فقد صبروا وصابروا ، ما نكسوا عن رسالتهم ، ولا ينفكون عن تبليغ دعوتهم ، ولا ينزلون على حكم كذبة واحدة تستنقذهم من كل ذلك البلاء . فى حين أن أحداً منهم لا يبغى بقيامه مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً . حتى يقال إنهم إنما يجازفون بذلك كله فى سبيله . ولقد يجىء أحدهم المال والجاه والسلطان فيأبى إلا شظف العيش وإلا حياة المساكين . وفى حال داود وسليمان عليهما السلام أكرم الأمثال ، وناهيك بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » . وستعلم مما سيرد عليك من بعض شأنه فى هذا الباب ، أنه لو شاء لعاش فى أخفض عيش وأرغده ، وتقلب فى أهنأ حال وأسعده .

لقد تعلم هذا ، وتعلم أن أيسر آلات الأذى ، وأدناها منالا ، وأشيعها أثراً ، وأقلها كلفة إنما هى الطعن والتجريح والدمغ بفنون التهم ، وخاصة فيمن يقومون بدعوة دينية . ومع هذا كله لا ترى الكفار من أعداء أصحاب الرسالات يعتمدون تنقص أنبيائهم والمبعوثين فيهم من ناحية أخلاقهم ، بنسبة الرذائل إليهم وادعاء تعطلهم من الفضائل ، على أن دعوة الرسل إنما تقوم على تسفيه أحلامهم وتقبيح سيرهم ، ومبادئهم برذائلهم ، إلى ذم معتقداتهم ، والزراية على آلهتهم . كل أولئك والكفرة من عداتهم لا يلقونهم فى هذا الباب إلا بتهمة واحدة ، هى تهمة الكذب فيما بعثوا به ، ونحو هذا من إضافة السحر وما يشبه السحر إليهم ، وذلك مما يتسق لحكم المنطق العام ، فإنهم لو آذنوا باستراحتهم إلى تصديقهم ، وتزهوهم عن رذيلة الكذب فى دعوى الرسالة لزمتهم الحجة ، ولم يبق لهم مناص من التسليم إليهم

والإذعان لهم . أما تحرجهم من الطعن فى سائر خلالهم ، فلأن نشأتهم - عليهم السلام - فى الكمالات ، وانطباعهم مدى حياتهم على أعالى الخلال ، وطول تنزههم عن أدانى الرذائل فضلاً عن قواصيها وأنهم لم يؤخذ على أحد منهم مدى العمر زلة ، ولم تحص عليه فى هذا الباب جولة ، واشتهارهم بهذا عند كل من لابسهم ، وشيوعه فيمن لم يتصلوا بهم ؛ كل ذلك مما يجزم عداتهم بأنه لا يمكن أن يبعث فيهم معه قيل ، ولا يجعل لقالة السوء إليهم أى سبيل .

أما حواريو الأنبياء وخاصة أصحابهم ، فإن مما لا شك فيه أنه لا يمكن أن يبلغ منهم هذا الموضع ، وينزل عندهم هذه المنزلة إلا من حباه الله بقوة الإيمان ، وشدة النفس ، وكمال العقل ، وقوة العزم ، وإيثار الآخرة على كل منافع الدنيا ؛ حتى لترى هؤلاء يخرجون - فى سبيل تأييدهم ونصرتهم - عن كرائم أموالهم ، ويصارحون بالعداوة أبناءهم وأدنى أهليهم منهم ، ولقد يتقدمون إلى سفك دمائهم طيبة بذلك أنفسهم . إلى أن لزامهم للرسل الكرام ، وطول اتصالهم بهم حقيق بأن يجدد الإيمان فى قلوبهم ، ويذكى خشية الله فى نفوسهم . وهذا فضلا عن يقينهم بوثيق الصلة بين الرسول وربه الذى لا يخفى عليه ما تطوى الصدور وما تجن القلوب ؛ « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم » ، « ربكم أعلم بما فى نفوسكم » ، « إنه عليم بذات الصدور » . وذلك ما يدعوه أصحاب الكلام : العصمة الجائزة ؛ كعصمة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . أما عصمة الأنبياء عليهم السلام فالعصمة الواجبة .

وبعد ، فإنك لو تتبعت سير الأنبياء عليهم السلام ، وتقصيت أخبارهم وما أثر من أسبابهم فى كل أمورهم ، لترادفت عليك الحجج بأن ما رزقوا من سلامة الخلال ، وجلالة الأخلاق ، لا يمكن إلا أن يكون بمدد من الله تعالى وتوفيق وعصمة .

ولقد تقدم الكلام فى أنه ما من رجل - فى بعيد التاريخ وقريبه - عرف بأنه قد اجتمعت له كل غرائز الخير ، وتنزه عن جميع ضرائب الشر ، ولو كان هذا - وهذا مما أسلفنا أنه يكاد يتصل بالمستحيل - فلابد من أن تعترضه عثرة ، وتلحقه زلة ، وتميل به - ولو فى شباب السن - نزوة ، ويطوف به طائف من شهوة . أما الأنبياء عليهم السلام فقد طهرهم الله تعالى ، وكف كل رجس عنهم ؛ من يوم سواهم إلى يوم قبضهم ؟

عبد العزيز البشرى